

تفسير ابن كثير

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ^ج وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ
شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي
وَلَأْتِمَنَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

وقال في الأمر الثاني : (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق
من ربك وما الله بغافل عما تعملون) فذكر أنه الحق من الله وارتقى عن المقام الأول ،
حيث كان موافقا لرضا الرسول صلى الله عليه وسلم فبين أنه الحق أيضا من الله يحبه
ويرتضيه ، وذكر في الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا
يتحجبون باستقبال الرسول إلى قبلتهم ، وقد كانوا يعلمون بما في كتبهم أنه سيصرف إلى
قبة إبراهيم ، عليه السلام ، إلى الكعبة ، وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما
صرف الرسول صلى الله عليه وسلم عن قبة اليهود إلى قبة إبراهيم التي هي أشرف ، وقد
كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول صلى الله عليه وسلم إليها ، وقيل غير ذلك
من الأجوبة عن حكمة التكرار ، وقد بسطها فخر الدين وغيره ، والله سبحانه وتعالى أعلم

وقوله : (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أي : أهل الكتاب ; فإنهم يعلمون من صفة هذه

الأمّة التوجه إلى الكعبة ، فإذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوا بها على المسلمين أو

لئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم في التوجه إلى بيت المقدس . وهذا أظهر . قال أبو

العالية : (لئلا يكون للناس عليكم حجة) يعني به أهل الكتاب حين قالوا : صرف محمد

إلى الكعبة . وقالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه . وكان حجتهم على النبي صلى

الله عليه وسلم انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا : سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا

قال ابن أبي حاتم : وروي عن مجاهد ، وعطاء ، والضحاك ، والربيع بن أنس ، وقتادة ،

والسدي ، نحو هذا . وقال هؤلاء في قوله : (إلا الذين ظلموا منهم) يعني : مشركي قريش

ووجه بعضهم حجة الظلمة وهي داحضة أن قالوا : إن هذا الرجل يزعم أنه على دين

إبراهيم : فإن كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم ، فلم رجع عنه ؟ والجواب :

أن الله تعالى اختار له التوجه إلى بيت المقدس أولا لما له تعالى في ذلك من الحكمة ،

فأطاع ربه تعالى في ذلك ، ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهي الكعبة فامتثل أمر الله في ذلك

أيضا ، فهو ، صلوات الله وسلامه عليه ، مطيع الله في جميع أحواله ، لا يخرج عن أمر

الله طرفة عين ، وأمته تبع له .وقوله : (فلا تخشوهم واخشوني) أي : لا تخشوا شبه
الظلمة المتعنتين ، وأفردوا الخشية لي ، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى منه .وقوله : (ولأتم
نعمتي عليكم) عطف على (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أي : ولأتم نعمتي عليكم
فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة ، لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوها (ولعلكم
تهتدون) أي : إلى ما ضلت عنه الأمم هديناكم إليه ، وخصصناكم به ، ولهذا كانت هذه
الأمّة أشرف الأمم وأفضلها .